

التاريخ السياسي الإسلامي لدولة ملاقا

عبد الغني يعقوب الفطاني *

مقدمة

اتجهت البرتغال بعد سقوط الأندلس سنة 1492م إلى الشرق بدوافع استعمارية للسيطرة على بعض البلدان والممالك ذات الثراء والغنية بالمواد الأولية لأغراض اقتصادية ودينية. يقول بعض المؤرخين العرب إن كلمة ملاقا Malacca مشتقة من الملاقاة، أو الملتقى، لأن طرق التجارة العالمية كانت تلتقي عند هذا المرفأ البحري من شبه جزيرة الملايو، وذلك منذ القرن العاشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي. بينما يقول الملايويون: إن كلمة "ملاقا" منسوبة إلى شجرة محلية تعرف باسم "شجرة ملاك" Pokok Melaka. أما الهنود فيقولون: إن "ملاقا" مقتبسة من ملاياقا (Malayaka) وهي منطقة معروفة بجنوب الهند. وأرى أن أسباب تسمية ملاقا بهذا الاسم العربي وملاك بالملايوية راجع إلى أهميتها التجارية العالمية ولموقعها الفريد الذي يصل سومطرة بإندونيسيا وملاقا بماليزيا،¹ وفيها يجتمع التجار الوافدون فيلتقون في هذه

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر؛ أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

¹ 'Abd Hamid Bashah Raja Campa & Dis Narti Jemal dalam Patani besar, Pustaka Reka, 1994, p. 30-32.

وانظر أيضا: د. إبراهيم شعوط، المجتمع العربي والإسلامي (مصر: الأزهر، 1967م) ص 12-14.

المنطقة فسميت بـ"ملاقا" والتي كانت مملكة ملايوية إسلامية واسعة تحكم العديد من الولايات بشبه جزيرة الملايو (1377-1511م) والمناطق الناطقة بالملايوية بسومطرة اليوم² مثل جامبي Jambi. كامفر Kampar. واندراغيري Indragiri، سيالك Siak. أرو Aru وفاسي Pasai، وهي ليست ملاقا اليوم المحصورة بين بحري سميلان Negri Sembilan وجوهور Johor (بماليزيا).

وكان يستقبل ميناء ملاقا التجاري وفوداً من جاوا Jawa وسيام Siam (تايلاند حالياً) والهند وبلاد فارس والصين وشبه الجزيرة العربية لترويج بضاعتهم التجارية المتنوعة مثل الحرير والورق والأواني الفخارية من الصين، والمنسوجات والملابس القطنية من الهند، والتوابل والمواد الحريفة من جاوا، والسجاجيد والأفرشة الملكية من بلاد فارس، والتمور والعطور والصمغ من شبه الجزيرة العربية، والأرز والبقيلة البيضاء من سيام،³ وكان لها نفوذ ديني وسياسي وعسكري قبل أن تكون ملاقا دولة ملايوية إسلامية، لأنها كانت هي المهيمنة على شبه جزيرة الملايو،⁴ بعد سقوط مملكتي سري ويجايا Seri Vejaya في المدة بين القرنين 5-14م، وماجا فاهيت Maja pahit 1293-1478م.

هذا وقد حكم مملكة سري ويجايا ملوك مثل الملك وارمان War man، والملك مولا وارمان Mula War man، وقورنا وارمان Purna War man، ومن "الراجات" ماجا فاهيت كين أروك Ken Arek (مؤسس الأميرطوية)، وهيام وروك Hayam Warouk 1350-1389م. ووحدت المملكتان المتعاقبتان جزر أرخبيل الملايو تحت حكم واحد. وما غابت شمس الإمبراطوريتين وحضارتهم البوذية ثم الهندوسية إلا بعد دخول الإسلام إلى جزر الأرخبيل.⁵

² جزيرة في الأباتوس الهندي (إندونيسيا) في ممرتها فادانج Padang ومن مدنها فلمانج Palambang وميدان Medan وتشتهر بإنتاج البن والأرز والبهار وتسمى أيضاً: بجزيرة واقواق الصين، راجع جورج فضلو حوراني، العرب والملاح في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م) ص23.

³ A. Hasjmy, Sejarah Meseik dan berkembanganya di Islam di Undenesia, Catakan Pertama, 1981, pp. 37-38.

⁴ قهر الدين يونس، هذه هي إندونيسيا (مصر: الشبكشي، 1947م)، ص49.

⁵ مملكة سري ويجايا بوذية الديانة في عدتها بالميانج Palimbang سومطرة، وماجا فاهيت هندوسية، وعاصمتها جاوا. وكانتا تبسطان جناحيهما الديني والسياسي على شبه جزيرة الملايو: سنغافورة، وإندونيسيا، والفلبين، وبروناي دار السلام، وصباح، وسراواك، وفطاني، وسيلان، ومدغشقر.

تحدث المستشرق الهولندي سنوك هورخينة¹² في مذكراته عن عجز الهندوسية أن تحدث أي تغيير جذري في المجتمع الملايوي على الرغم من أنها بقيت فترة طويلة فيه. وإن كانت اللغة السنسكريتية قد تركت بصمات لغوية أثرت في المصطلحات الملايوية الحديثة مثل الملك المعظم Maharaja، سوريا Suria (الشمس) سنجنا Senja، وقت الغروب، سوامي Swami (الزوج) اندرافورا Indrapura (باهانج ولاية في ماليزيا) واندرا قيري Indragiri بلده في سومطرة،¹³ وكذلك بعض العادات والتقاليد الملايوية القديمة لدى الملايويين الحاليين مثل مراسيم الزواج، واستقبال المولود الجديد، والاحتفال بيوم الحصاد. وقد زالت بعض هذه العادات بعد انتشار الوعي الديني الصحيح.¹⁴ فقد حاول بعض المتحمسين للنصرة الإقليمية والمهتمين بالآثار القديمة إحياء بعض هذه العادات القديمة والتي تتنافى مع تعاليم الإسلام.

ملاقا

يظهر لنا من الدراسات الأولية أن الإسلام وحضارته العالمية قد وصلت إلى ملاقا ومناطق جزر أرخبيل الملايو في القرن الأول من الهجرة النبوية الشريفة بواسطة التجار العرب والمسلمين الغيورين من فرس وأتراك وصينيين من الذين كانوا يجوبون البحار والمحيطات في ذلك الوقت. وقد حملوا معهم تجارتين: دعوة ربانية، وسلعاً تجارية، ففازوا بالحسنين، ومنذ ذلك الوقت أخذت ملاقا في الظهور واتسمت بالقوة الروحانية، والاقتصادية، والعسكرية، والعلمية، بتأثير الدعاة المسلمين الذين جاءوا من بلاد العرب، وكذلك الملايويين الذين اعتنقوا الإسلام. محض إرادتهم.¹⁵ وفي الوقت نفسه أخذ الإسلام يشق أمواج البحر المتلاطمة، فيصل بكل أمان إلى قلوب الملايويين في ملاقا وكل أرخبيل نوسا أنتارا Nusa-antara،¹⁶ ولم ينتشر هذا

12 سنول هوغروجية Snockhurgonie 1857-1936م، درس اللغات اللاتينية واليونانية والإلهيات في جامعة لندن هولندا والأدب العربي الإسلامي في جامعة ستريونغ عن مدرسا فيها لتدريس الفقه الإسلامي، وقد عينته حكومة هولندا متشارا لشؤون الحركات الإسلامية بإندونيسيا، إبان الحركة الاستقلال وله كتاب مشهور أتشيه Acheh.

13 Rukaini: Nota Ringkasan Mengenai Penyebaran Islam di Alam Melayu dan Islam di Malaysia, Kuala Lumpur, 1980, p.192.

14 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص52.

15 A. HSJMY: Sejarah Masuk dan berkembangannya Islam di Indonesia, 1981, pp. 13-15.

16 مصطلح معروف لدى الملايويين Nusa-antara، نوسا معناها: الشعب، أنتارا: بين، (أي الشعوب بين المحيطين "الهندي والهادي".

للتشريف. 20 وكلمة (شاه) كلمة فارسية ومعناها الملك وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن ألقاب ملوك سلاطين الملايو متأثرة بألقاب ملوك الفرس المسلمين ولا تزال هذه الألقاب متداولة إلى يومنا هذا في بلاط سلاطين بلاد الملايو وأضرب مثلاً على ذلك: السلطان محمود المكتفي بالله شاه، السلطان أبو بكر رعاية الله شاه، السلطان إدريس المستعين بالله شاه. ولا يجوز أن يلقب أي سلطان من سلاطين المسلمين بالشاهنشاه (ملك الملوك) لورود النهي عن ذلك في الأحاديث النبوية.

تروى كتب التاريخ الملايوية هذه الحادثة النورانية بروايات مختلفة غير أن مضمونها واحد.. وفيها معان سامية تعكس الفطرة السليمة التي جُبل عليها هذا الملك (الراجا) الذي خاطبه رسول الله البشير في منامه. ومعروف أن رؤيا الرسول صلوات الله عليه - إذا وقعت - حق. أراد الله عز وجل أن يهدي الملك وينقذه من ظلمات الأديان إلى نور الإيمان ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56).

ومنذ سنة 1400م وبعد إسلام الملك تبعته الأسرة المالكة والوزراء وعوام الناس، والناس على دين ملوكهم، يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عالم الإسلام (ولم يجد الإسلام عقبه في طريقة إلى شبه جزيرة ملاقا²¹ (الملايو) وأخذت دولة ملاقا الإسلامية الوليدة تتجه إلى تطبيق الأحكام الإسلامية في البلاد، مع محاولة التوفيق بين أحكام الشريعة والعادات والتقاليد الملايوية التي لا تناقض الإسلام²².

ثم أمر السلطان محمد شاه 1377-1414م ببناء المساجد في كل أنحاء البلاد لأهميتها في الإسلام كما هو معروف، وأمر بإقامة المراكز الدينية العلمية (الفندوق Pondok)²³ ليشع منها نور التوحيد والإيمان وأمر بلغة جديدة رسمية للدولة²⁴. بعد أن كانت السنسكريتية القديمة البالية، وهذه اللغة هي اللغة الملايوية

20 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص82، وانظر أيضاً: Sejarah Umat Islam، مرجع سابق، ص443.

21 حسين مؤنس، عالم الإسلام (مصر: دار المعارف، 1973م)، ص76.

22 محمد عبد الرؤوف، الملايو وصف وانطباعات، مرجع سابق، ص40.

23 معاهد دينية تقليدية نظامها حلقات يدرس الطلاب في الفندوق كتب التراث الديني وحفظ القرآن، والكتابة الأبجدية للأطفال.

24 اللغة الملايوية القديمة (تكتب بالأبجدية العربية بزيادة خمس حروف هي: فح، چ، پ، ث، ك، ويكون عدد حرف الكتابة الجاوية Tulisan Juwi ثلاثة وثلاثون حرفاً. هذه الإضافات الحرفية، كانت إما تأثراً بالكتابة الفارسية أو الأوردية، أو من إبداع مفكري الملايو وقصد، وهذا هو الأقرب.

الدولة الملايوية الوليدة كل الصعوبات فخرجت من تحتها ظفرة مظفرة.

2 - **العهد الثاني:** ويمكن أن نسميه عهد التقدم والازدهار. ويبدأ من عهد السلطان سري فارا ميسوارا ديوا شاه 1444-1456م، وقد خلف هذا السلطان ولدين هما الراجا إبراهيم، والراجا قاسم حصل بينهما خلاف أدى إلى قتل الراجا إبراهيم. 29 وهذه أول حادثة دموية حصلت في بلاط دولة ملاقا، وقد هزت هذه الحادثة الأليمة ملاقا كلها. ولكن مع حسن سياسة الراجا قاسم السلطان مظفر (1446-1459م)، 30 عاد الوضع إلى مساره الصحيح. وفي عهده تقدمت البلاد وأخذت بالنهوض في جميع المجالات الزراعية، والتجارية، والفنية، والعلمية، والقوة العسكرية لعلاقة الدولة بإمبرطورية الصين التي كانت تمدّ ملاقا بالتكنولوجيا العسكرية، وبعد وفاة السلطان مظفر تولى السلطة من بعده السلطان منصور شاه 1459-1477م، وفي عهده بدأت الدولة باستكمال تطبيق شريعة الله في أرضه. 31 وفي عهد هذا السلطان استطاعت ملاقا أن تجمع الأحكام الشرعية والعادات الملايوية في كتاب يعرف بقانون ملاقا "Undang-undang Melayu". وتضمن هذا الكتاب القوانين الشرعية التي كانت تطبق في أرجاء دولة ملاقا الواسعة وكان من بين تلك القوانين: إقامة الحدّ على الزانية والزاني، وقطع يد السارق والسارقة، وقتل المرتد بحد السيف، وطبقت أيضا قوانين تتعلق بالأحوال الشخصية مثل: قانون الزواج، والمعاملات مثل: قانون التجارة والضمان والإعارة وقانون البحر، 32 وأحكام القصاص والأحوال الشخصية والمعاملات كلها على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على شيوع هذا المذهب في ملاقا وجزر أرخبيل الملايو 33 وقد اقتسبت

29 Jessy (Jogindor Singh Jessy): Sejarah Tanah Melayu K.Lumpur: Dewan Bahasa dan Pustaka, 1980, pp. 30-31.

30 مظفر (The Winner) لأنه استطاع أن يقضى على أنصار أخيه الراجا إبراهيم ويقود البلاد إلى بر الأمان، وفي حينه أرادت سيام من الشمال غزو ملاقا ولكن السلطان مظفر وشعبه واجهوا الغزو بكل بسالة واستماتوا في ذلك.

31 كريم أمر الله، تاريخ أمة الإسلام، مرجع سابق، ص 440.

32 يقصد بقانون البحر هنا أن كل سفينة تجارية تخرج للصيد، فلا بد أن يكون هناك إمام يوم الصيادين. وإذا نظرنا إلى هذا القانون فإن معنى ذلك أن ملاقا كانت تهتم إهتماما كبيرا في تأدية الواجب الأول نحو الخالق سبحانه وتعالى، ألا وهي الصلوات الخمس.

33 Muhammad Yusof Hashim: Islam dalm Sejarah Perundangan Negri Melaka dan Islam di Malaysia, K.Lumpur: Per Satuan Sejarah malaysia, 1980, pp. 4-5.

كانت تضم نار الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، وبفضل من الله ومنتته استطاعت ملاقا الإسلامية أن تحافظ على السياسة السلمية بين الديانتين الهندوسية والبوذية.

3 - العهد الثالث: وبعد وفاة السلطان منصور شاه اعتلى عرش البلاد السلطان علاء الدين رعاية شاه (1477-1488م)، وفي عهده بدأ نجمها في الأفول، وحتى لا نظلم السلطان رعاية شاه، فإنه ينبغي القول إنه على الرغم من ضعف سلطاته الداخلية إلا أنه استطاع أن ينفذ بعض الأحكام الشرعية، فكان يخرج لتفقد رعيته، وصادف إحدى الليالي جماعة من السراق قبض عليهم وأقام الحدّ عليهم بعد أن أدينوا واعترفوا أمام القاضي الشرعي. 37

وهنا نقف وقفة اعتزاز وفخر لأن عصور السلاطين: مظفر، ومنصور، وعلاء الدين كانت من أهم العصور التاريخية أو بعبارة أخرى كانت عصوراً ذهبية حقاً. 38 وذلك راجع إلى عدة أسباب:

- 1 - تطبيق الأحكام الشرعية من قبل الدولة.
- 2 - الدعوة الإسلامية التي كانت تشرف عليها سلطات الدولة وولاية أمور البلاد، فوصلت دعوة الحق إلى الفيلبين (عنراء الملايو) وبروني دار السلام، وأقاليم بورنيو الشمالية والجنوبية) 39 وتوسعت العلاقة الدينية والتجارية بين سلطنتي ملاقا وفطاني. 40
- 3 - الانطباط الجمركي حيث كان يشرف عليه مسؤول يعرف باسم: شاه بندر .Shah Bandar

- 4 - الاستقرار والأمن الداخلي والخارجي وهو الأساس لبناء أية حضارة من حضارات الأمم قديماً وحديثاً.
- 5 - اعتماد منطقة "ملاقا" سوقاً مركزياً وعالمياً، فقد فتحت ملاقا أبوابها للتجارة العالمية والاستثمارات الأجنبية.

37 تاريخ أمة الإسلام، مرجع سابق، ص426، وانظر أيضاً محمد يوسف هاشم، Islam dalam Sejarah Perundangan Negri Melaka، ص15.

38 محمود شاكر، اتحاد ماليزيا (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1392هـ) ص10-12. وانظر أيضاً: ماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص50-51.

39 يقصد بيورنيو الشمالية (صباح وسراواق وبروني دار السلام) فكانت خاضعة لبريطانيا، وأما بورنيو الجنوبية (كاليمنتان) فكانت تسيطر عليها الشركة الهولندية الشرقية V.O.C.

40 مملكة ملايوية إسلامية احتلتها سيام "تايلاند" سنة 1786م.

ماذا يا ترى كان يريد فاسكو دي جاما من هذه الرحلة البحرية؟ مما لا شك أن هذا القبطان البرتغالي قد أرسله بلاط دولته للبحث عن مصدر التوابل والمواد الحريفة واكتشاف الطريق البحري المؤدي إلى شبه جزيرة الملايو منبع التوابل وأم البهارات. وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي وصل القبطان فرديناند ماجلان 1480-1521م إلى الشرق بالدوران حول أمريكا والاتجاه نحو الغرب فاكتشف قارة أمريكا مصادفة،⁴⁸ كما تحدث ماركو بولو الإيطالي Marcopolo عن مشاهداته وانطباعاته عن دول أرخبيل الملايو حيث زا ردولة فاسي Pasai بسومطرة في عهد حاكمها السلطان الملك الظاهر بهيان شاه⁴⁹ 1297-1326م وقد مرَّ هذا الرحالة الإيطالي على ملاقا وهو في طريقه إلى الصين، ودون ملاحظاته وانطباعاته في كتابه رحلة مارب كوبولو ومما جاء في مذكراته "أنه قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في سنة 1292م فوجد جماعة من المسلمين في مملكة فيرلاك Perlak وأن هذه المملكة غنية بالتوابل والبهارات والأخشاب والمناظر الطبيعية.⁵⁰

أطلع القائمون على دول البرتغال وأسبانيا وهولندا على مدونات وملاحظات ماركو بولو عن ثراء دول أرخبيل الملايو وكثرة خيراتها الطبيعية، فخططوا للوصول إليها. ولم يمر عام واحد على اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلا وكانت البرتغال قد اتخذت لها قاعدة على الساحل الغربي للهند في غوا (Goa)⁵¹ سنة 1510م وعين الفنسو دي البوكيرك Alfansode albugurgue حاكما عليها ومنها انطلقت إلى ملاقا.⁵²

الهجمة البرتغالية الأولى على ملاقا

أرسل الفنسو دي البوكيرك من جوا Goa قواته البحرية بقيادة الأدميرال البحري "ديجو لوبيز دي سكوير Diego Lopizde Segueira" لتقصي الحقائق عن أهمية هذا الميناء الملايوي الإسلامي من الناحية التجارية، ومدى تمسك الملاقيين بالوحدة

48 محمود شاكر، العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص143.

49 Sejarah Masuk dan Berkembanganya Islam di Indonesia, Cetakan Ke tiga 1993, p.205.

50 توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وزملاؤه (مصر: النهضة المصرية، 1971م) ص405.

51 ك.م. بانكار، آسيا والسيطرة الغربية (مصر: النهضة المصرية، 1972م) ص29.

52 للعلم فإنه قبل أن يصل البرتغاليون إلى ملاقا، كانوا قد سيطروا على موانئ دول الخليج العربي مثل عمان، والكويت، والبحرين، ووصلوا أيضا إلى جدة Jeddah لبروا مدى قوتها القتالية واستعدادها للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

على تجارة هذه البلاد، ولقد اغتنوا وأصبحوا أصحاب ثروات ضخمة، وملاقا هي مركزهم، فهامهم ينقلون كل عام التوابل والأدوية إلى بلادهم دون أن نستطيع منعهم، فإذا تمكنا من حرمانهم من هذه السوق القديمة، لا يبقى لهم ميناء واحد ومحطة واحدة مناسبة في كل هذه المنطقة ليستمروا في تجارتهم، وأؤكد لكم أنه إذا استطعنا تخليص ملاقا من أيديهم فستنهار القاهرة وبعدها مكة نهائياً. وعلى البندقية بعد ذلك أن ترسل تجارتها إلى البرتغال إذا أرادت شراء التوابل. 57

وإذا تفحصنا خطبة الفنسو دي البوكيرك فإننا نستطيع أن نستخلص منها النقاط الآتية:

- 1 - كانت الحرب حرباً دينية، وهي كذلك امتداد طبيعي للحروب الصليبية التي حدثت في الشرق العربي الإسلامي وهي امتداد للحروب الدينية في الإندلس.
- 2 - محاولة طرد أهالي البلاد والتجار المسلمين من الموانئ التجارية العالمية؛ ومن ثم السيطرة على جميع الهند.

3 - محاولة البرتغال السيطرة على تجارة التوابل والأدوية والعقاقير التي كانت تأتي من ملاقا وهي التجارة الراجحة التي كانت تسيطر عليها أيادي مسلمة.

4 - الإجهاض على مملكة "ملاقا" والقضاء على قوتها الإسلامية الحاكمة فيها فإذا سقطت هذه القلعة الدينية ومنارة الحضارة الإنسانية بعالم الملايو، عنده سوف تستسلم القاهرة للبرتغاليين وتنهار مكة نهائياً للغرب المسيحي، دعنا نتساءل ما العلاقة بين ملاقا والقاهرة ومكة حرسها الله من كيد الأعداء والمعتدين؟

الإجابة عن ذلك: إن ملاقا كانت قاعدة تجارية عالمية حيثذاك في عالم الملايو؛ حيث كانت تمد العالم بالمواد التجارية والعقاقير الطبية والأدوية العشبية، أما القاهرة فإنها مركز ومنارة العلم والثقافة الإسلامية في الشرق العربي والعالم الإسلامي، حيث الأزهر الشريف وعلماؤه الأجلاء الذين يثون روح الحماسة الدينية، ومكة المحروسة فإنها مكان مقدس لدى مسلمي العالم، وجاء البرتغاليون بمساندة دول الغرب المسيحي للإجهاض على القاعدة الاقتصادية في العالم الإسلامي وقتذاك. فإذا رضخت القوة الاقتصادية للمحتل فإن الحركة العلمية والتقدم الحضاري تأخذ في الانحسار، فيقل بعد ذلك زوار وحجاج وعمار بيت الله الحرام. فإذا اختلت إحدى هذه

وكان أول ما عملوه بعد استيلائهم على مدينة ملاقا العتيقة أن بنوا حصناً كبيراً سُمِّي "آفاموسا A. Famusa" بحجارة انتزعوها من قبور المسلمين فأتاروا بذلك غضب جميع المسلمين، ثم أقدموا على إعدام دفعات متتالية من الأهالي. وسلبوا أموال سكانها من الذهب والأحجار الثمينة والحرير والعطور والعود. وحرقوا ثم سرقوا الترات الملايوي القديم، من كتب وآلات فنون شعبية.

جعل البرتغاليون أرخبيل الملايو كله ميداناً لصراعهم مع المسلمين والتجارة الإسلامية، وصاحب هجماتهم الحرية نشاط تنصيري مسيحي مركز وبدأ الغزو الفكري يأخذ طريقه إلى التسرب بين المجتمعات الإسلامية في ملايا، ومنطقة جنوب شرق آسيا. 64

ما موقف المسلمون في ملاقا وقتذاك؟ أعلن المجاهدون في ملاقا جهادهم الديني، فخاضوا معارك كثيرة منها معركة باغوه Paguh نهاية 1511م، 1512م، 1519، 1920م ومعركة قوات علاء الدين شاه الثاني 1551م ومعركة تانينج 1586م. 65 وتحدث المصادر التاريخية عن مشاركة متطوعين من الأتراك والمصريين في بعض المعارك الحربية. 66

وعندما غابت شمس ملاقا ظهرت في جزر أرخبيل الملايو دولة جديدة: هي دولة أتشيه الإسلامية (Acheh Islamic State). 67 وقد استمرت هذه الحكومة الإسلامية مائة عام تقريباً 1507-1607م ومن أهم ملوكها "السلطان مفايات شاه 1507م والسلطان إسكندر مودا مهكوتا عالم 1607م، وخلال مدة حكم هذه المملكة الملايوية الإسلامية سطع فيها أجلاء من العلماء أمثال الشيخ حمزة الفنصوري 1610م والشيخ نور الدين الرانيري 1634م والشيخ عبد الرؤوف السنكلي 1620م والشيخ إبراهيم الشامي 1623م والشيخ محمد اليماني المكي 1629م والشيخ شمس الدين السومطرائي 1630م. 68 وقد أدت أتشيه دورها الإسلامي والثقافي واللغوي وكذلك

64 لم ينجح الغزو الفكري تماماً إلا بعد احتلال بريطانيا ملايا وهولندا إندونيسيا وأول مظاهر هذا التغريب والغزو الفكري تغيير الكتابة الملايوية التي كانت تستعمل الحروف العربية إلى أبجدية رومية ثم أعقبها إنشاء المدارس الإنجليزية الخصوصية.

65 مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر، مصدر سابق، ص 70.

66 الإسلام في الشرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه، مصدر سابق، ص 135.

67 Sejarah Umat Islam، مرجع سابق، ص 488-575.

68 محمد ضياء شهاب مع عبد الله بن نوح، الإسلام في إندونيسيا (السعودية: الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1969م)، ص 20.

ونتيجة لذلك ألغت الحكومة الهولندية كل رحلاتها التجارية إلى أرخبيل الملايو وبدأت الإعداد لخطة عسكرية للاستيلاء على ملاقا Malacca وانتزاعها من أيدي البرتغاليين.⁷² ففي 14 يناير سنة 1641م وفي الساعة العاشرة صباحاً؛ استطاعت قوات هولندا البحرية السيطرة على مدينة ملاقا كلية، وأعلن الحاكم البرتغالي أنذاك عمانويل دي شوزي (Manuel de Sause) استسلام البرتغال للهولنديين بعد حصار دام خمسة عشر شهراً، ثم استولوا على نانينج Nanning في نجري سميلان Negri Sembelan وكوالا سلانجور Kuala Selangor بسلانجور دار الإحسان، الميناء التجاري المهم في ذلك الوقت، امتدت فترة احتلال هولندا لملاقا حوالي مائة وثمانين سنة ثم تنازلت عنها لبريطانيا نهائياً طبقاً للاتفاقية التي وُقعت بين البلدين سنة 1824م، وكانت مهمة الشركة الهولندية الشرقية V.O.C الكشف عن القصدير والمواد الطبيعية الأخرى مثل الذهب والحديد والأرز والمواد الحريفة واستغلالها استغلالاً تجارياً عالمياً، بقدر اهتمامها بنشر المسيحية وتغريب البلاد، وعلى الرغم من ذلك تركت حكومة أمستردام بصماتها الاستشراقية بملاقا (ملايا فيما بعد) وعندما احتلت بريطانيا ملايا (ملاقا سابقاً) اتبعت سياسة تغريب البلاد وغزوها ثقافياً وتعليمياً وذلك باستبدال الكتابة الملايوية الجاوية بالأحرف اللاتينية وأثناء احتلال هولندا للمنطقة قامت ثورات شعبية جهادية مثل: ثورة 1675م، وثورة 50 برئاسة راجا حاج علي،⁷³ وثورة 1784م برئاسة السلطان إبراهيم الثاني 1778-1790م واندلعت هذه الثورة الوطنية في كوالا سلنجور وفي هذه المعركة الحربية انتصر المسلمون في هذه الموقعة ولكن هذا الانتصار لم يكن له معنى لأن القوات الهولندية كانت قد أحكمت سيطرتها على الاقتصاد والشؤون الداخلية والخارجية، ولم يخل يوم واحد من حركة عصيان ضد القوات الأجنبية. وكان من سياسة هولندا المراوغة إعطاء المواعيد المعسولة مما أسكر عقول بعض سلاطين الملايو وكبار رجالات الدولة حينذاك، والشعب مغلوب على أمره.

⁷² في طلب التوايل، مرجع سابق، ص347، وانظر أيضاً:

Ismail Hadi: Sejarah Malaysia, Penerbit Fjar Bakti S.B, P. Jaya, 1987, pp. 20-22.

⁷³ راج حاج علي: ينتمي إلى أسرة ملكة رياو Riaug الخاضعة لجمهورية إندونيسيا الآن، وقد تولى هذا السلطان إمارة "جوهور رياو".

Singapor 77 ففي سنة 1819م قدم وفد بريطاني برئاسة السير ستان فور رافليز Stan Ford Raffles واستطاع بحيلته ووعوده المعسولة أن يستأجر الجزيرة وتعد المعاهدة مع السلطان حسين شاه الحاكم من قبل سلطنة جوهور علماً أن الجزيرة جزء لا يتجزأ من جوهور دار التعظيم. ومن أهم نصوص هذه المعاهدة:

- 1 - أن تدفع بريطانيا للسلطان حسين شاه راتباً شهرياً قدره 10.000 رنجيت مدة حياته. ولو كيله "تيماكونج Temangong راتباً آخر قدره 5.000 رنجيت.
- 2 - ألاّ تتدخل بريطانيا في شؤون سنغافورة الداخلية وهذا يتنافى مع حقيقة سياسة بريطانيا، فقد تدخلت في شؤون الجزيرة داخلياً وخارجياً، بأن جلبت أناساً غرباء عن البلاد (الصينيون والهنود) وتعاونت مع هؤلاء في سبيل إسقاط الهوية الملايوية الإسلامية عن تلك الجزيرة. 78 كما نرى اليوم.
- 3 - لبريطانيا أن تطور المدينة وتبني قواتها العسكرية فيها وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبحت هي القوة الضاغطة على السلطنات الملايوية خاصة وعلى المستعمرات البريطانية في هذا الجزء من العالم.

وفي سبيل الإجهاض على الهوية الإسلامية للجزيرة اتبعت بريطانيا، مختلف الأساليب لتحقيق أغراضها مثل: تهديد السلطان بقطع الامتيازات الممنوحة له، والمراوغة والوعود المعسولة التي كانت تعد بها بريطانيا السلطان، واستعراض عضلات القوات البريطانية بالمنطقة، كل هذا جعل السلطان حسين شاه ومن شاكلة من سلاطين الملايو يلجأون إلى طلب المساعدة من المقيم البريطاني حينذاك. وفي سنة 1824م سوت بريطانيا وهولندا خلافتهما بأن عقدت معاهدة بين الدولتين British-Dutch Treaty وكان من أهم نصوصها:

- 1 - رفعت بريطانيا وشركتها: E.I.C أيديها عن جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) لأنها كانت تحتل جاكرتا وبانكولين بسومطرة، واعترفت بالسيادة الهولندية عليها.

77 وكانت تسمى بأوجونغ تانه (Ujong Tanah)، أي موحرة أرض الملايو أو ذيل أرض الملايو، وبعدها سميت بـ تماسيك (Temasik).

78 في الحقيقة أن انتزاع الجزيرة من أيدي السلطات الملايوية الإسلامية بدأت منذ سنة 1819م وليست في عهد حكومة المرحوم "تانكو عبد الرحمن فترا الحاج" الذي وافق على أن تنفصل سنغافورة عن دولة ماليزيا سنة 1965م. وفي حينه أعلن (لي كوان يو) أول رئيس وزراء) دولة مستقلة لها كيانتها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. واعترفت دول العالم بها. راجع المصدر السابق: اتحاد ماليزيا، ص 40-41.

دار الرضوان⁸² كان هناك خلاف بين السلطان عبد الله (حاكم السلطنة) والراجا يوسف الذي أراد التعاون مع السلطات البريطانية. في بداية الأمر أيدت بريطانيا السلطان عبد الله وبعبارة أخرى وقفت بريطانيا بجانب السلطان عبد الله في مواجهة أخيه الراجا يوسف، حيث رأت بريطانيا أن شعب بيراك والملايويين وقفوا جميعاً مع السلطان عبد الله لعدم موافقته على نظام الحماية البريطانية وعدم مسابته للسياسات الأجنبية، ففي حينه أيدت بريطانيا بكل حبثها وقواها الراجا يوسف، لميوله وتعاونه مع سياسة الأخطبوط البريطاني فنفت بريطانيا السلطان عبد الله إلى جزيرة شيشل She Sheal في وسط المحيط الهندي وقد كانت مستعمرة بريطانية.

وإذا أردنا أن نعرف لِمَ نَفَتْ السلطات البريطانية وعيّنت الراجا يوسف حاكماً على سلطنة بيراك؟ فإن ذلك يرجع إلى الأسباب الآتية:

- 1 - السلطان عبد الله أكره على توقيع إتفاقية بانكور Pangkor سنة 1847 مع بريطانيا وبموجب هذه الإتفاقية احتلت بريطانيا البلاد.
- 2- سلبت بريطانيا جميع سلطات السلطنة الداخلية والخارجية فأصبح سلطانا بدون سلطات.
- 3 - تدفع الضرائب عن طريق المقيم البريطاني.
- 4 - وجود السلطان عبد الله في البلاد يؤدي إلى حدة التوتر بين الملايويين والبريطانيين المحتلين.
- 5 - لأن السلطان عبد الله كان يقاوم سياسة بريطانيا في سلطنته.

تلك هي العوامل والدوافع التي دفعت ببريطانيا لنفي هذا السلطان⁸³ إلى جزيرة بالمحيط الهند حتى لا يتعاون مع أهالي بيراك في إشعال نار الجهاد والثورة الوطنية وعلى الرغم من ذلك حدثت في البلاد حادثة بارزة، عندما قتل الملايويون المقيم البريطاني الأول (J.W.Birch) في باسير سالا Pasir Salak بعد شهر من تعيينه حاكماً بريطانيا في بيراك. وبعد مقتل هذا البريطاني أرسلت السلطات البريطانية المتمركزة في سنغافورة قوات بحرية قادمة من هونج كونج Hong Kong، والهند وفيتنام وسنغافورة. والسؤال: لماذا توافدت كل هذه القوات البريطانية؟ لقد كان

⁸² بيراك دار الرضوان، سلطنة ملايوية في ماليزيا عاصمتها: إيبو Ipoh: وهي غنية بمعادن القصدير وزراعة المطاط، وتغطي هذه البلاد غابات كثيفة.

⁸³ نفت حكومة بريطانيا السيد أحمد عرابي زعيم الثورة العرابية بمصر إلى جزيرة سيلان (سري لانكا) ونفت هولندا الشيخ يوسف من مكاسار (إندونيسيا) إلى جنوب إفريقيا لوقوفهما ضد سياسة الاحتلال.

سلطان بروني: السلطان هاشم، وأخيراً سيطرت حكومة لندن على جزيرة بورنيو الشمالية المشتملة على الولايات الآتية: بروناي دار السلام، سراواق، وصباح.⁸⁶ أثناء وجود بريطانيا في ملايا قامت عدة حركات جهادية مضادة للسيطرة الأجنبية ففي بيراك اندلعت مثلاً ثورة أهالي باسير سالك Pasir Salak سنة 1885م، وقتل في هذه المعركة المقيم البريطاني J.W.Birsh في نجري سميلان، وثورة السيد دول سعيد Dol Said سنة 1881م، وفي سلانجور قامت ثورة ما بين عامي 1870-1875م، وفي باهانج ثورة توك باهامان Bahaman 1891-1895م، وفي كلنتن ثورة تو جونغوت Tok Janggut سنة 1915م، وفي ترينجانو ثورة الشيخ عبد الرحمن ليمونج سنة 1928م، وفي قدح ثورة السلطان أحمد تاج الدين.⁸⁷

لماذا أسرعت بريطانيا إلى احتلال بلاد ملايا؟

بدأت بريطانيا في التدخل في شؤون بلاد ملايا بشكل سافر بداية من سنة 1847م لتصل إلى احتلالها كلية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، أهمها:

- 1 - في سنة 1869م افتتحت قناة السويس وبذلك تضاعفت حركة الملاحة البحرية العالمية والتجارة مع بلدان الشرق الأقصى. ونشطت التجارة البريطانية في كل المناطق الواقعة على ذلك الطريق التجاري.
- 2 - وفي سنة 1871م بدأت ألمانيا بمنافسة دول الاستعمار بما فيها بريطانيا في حقل التجارة.
- 3 - نشطت هولندا في إكمال سيطرتها على جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) مما أثار اهتمام بريطانيا ودفع بها إلى احتلال بلاد ملايا مخافة أن تستولي عليها هولندا أو ألمانيا.
- 4 - تجدد النشاط الفرنسي في تلك النواحي خاصة بعد أن تولى نابليون الثالث أمور فرنسا سنة 1852م، وقد باشرت فرنسا بفرض نفوذ الحماية على كامبوديا ولاوس وفيتنام سنة 1863م.
- 5 - ازدياد الطلب العالمي على معدن القصدير المستخرج من مناجم بلاد ملايا.

⁸⁶ اتحاد ماليزيا، مرجع سابق، ص4-14، وانظر أيضا: مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص62، وكذلك: الاستعمار في جنوب شرق آسيا، ص204-205.

⁸⁷ علما أن كلنتان Kelantan، قدح Kedah، ترينجانو Trengganو، ضمتها بريطانيا لاتحاد الملايو سنة 1909م بعد اتفاقية بانكوك Bankok Treaty بين بريطانيا وسيام.